النتاج الجديد

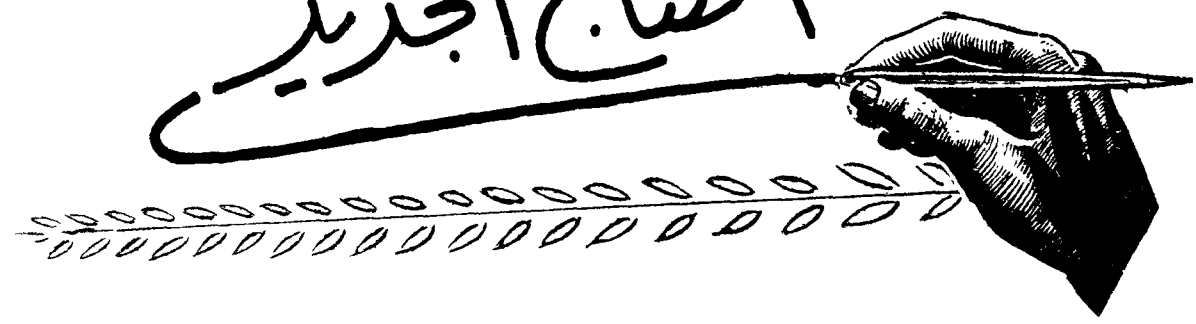

من وحي بور سعيد

ديوان شعر بقلم حسن فتح الباب

*

لم أزر بور سعيد الا بعد سنة من المعركة .. زرتها في الخريف ... ورحت انقب عن بقايا الثقوب من الرصاص في البيوت والطرقات ، وقربت انفي منها لاشم رائحة الدم تعوى كالصدى الحبيس في الرماد ... وسرت فوق الارض التي جعلت من الابطال اعصابا لها ، وفي نفسي هدير من انفعال ضخم لا يخفت مع الزمن.. ان بور سعيد ستبقى على مدى الزمن عاصمة التاريخ .. عاصمة النضال .. ولو سرت في طرقات بور سعيد ستسمع لقدميك دبيبا خاصا لا تسمعه في اية مدينة ، ستحس في دبيب خطواتك عمقا .. ورهبة .. وتلفتا .. وطرقا مبهما على باب خفي ... وحينما تطالع وجوه الناس هناك .. سيشملك دفء الاحاسيس الجماعي فعلا ... ستحب هذه الوجوه التي ترنو اليك بكل صراحة الارض . .وحنوها .. واصرارها .. ستسمع من نظرات الاطفال صوت طلقات الرصاص التي ما خفت صداها بعد .. فالمجتمع الذي صهرته المعركة يلم كل ابعاده المنتشرة في وحدة انسانية كاملة ، ويذيب الاحقاد الطبقية ، والمشاكل الفردية الرخيصة ، ويحدد الطاقة الجماعية في دفعة متآلفة ... وهذا ما ستشعر به بين الناس في ارض بورسعيد .. قبضة التاريخ ..

ولقد اندمج في هذه الجموع التي تولد على صوت هدير البحر ، وتموت .. وتدفن اصداءها في صوت هدير البحر .. عاش في هذا الجو البطولي الصادق الشاعر اليوزباشي حسن فتح الباب وهو الوحيد في شعراء مصر الذي سجل تجربته الواقعية في معركة بور سعيد ، ولهذا خرج ديوانه يرشح بدماء الابطال .. ، يتوهج فيه فجر الدم .. يسمع منه ما سمعه هو ، ودوى المدافع يتلاشى في صرخة الفدائيين ، وقد جنحوا جراحاتهم باجنحة من اعاصير البحر ، وهذا الديوان اعود اليه كلما زحمتني ثرثرة الحوادث اليومية البلهاء ... اعود اليه لاستشعر هيبة الانسان .. ووقار الفكرة ، فالمعركة توقظني من وثارة الكسل ، وتسمعني دوى الشموس في ركبها الناري الدائر .. نحو الغاية ..

والقصيدة الاولى للشاعر حسن فتح الباب في ديوانه هى قصيدة الجبانة وعندما تلفح وجهك انفاس جندي شهيد يحتضر على صدرك .. هل تهتز الا هذه الهزة ؟

ومضت تقاذفها الدروب ...
والريح .. جلاد .. كئيب ..
يذرو رمادي الدخان ..
ويهيل اكوام التراب ...
فوق الجراحات السجينة ..

لم تتشح لمزارها .. غير السواد..
فادرؤها .. ابدا .. سواد ..
ومن الشروق الى الشروق ...
ابدا .. سواد ...

*

وينتقل بك ذلك الضابط المصري الذي عاش تجربة بورسعيد باعصابه ... فينحني فجأة بجناحه المخضب بدم الآلاف من الرفاق .. ينحني وهو في ثورة الصمت المتفجر على طفل صغير : « أبدا يسير .. ويضمه جرح كبير .. عيناه تلتقيان بالصمت الرهيب .. مشدودتان الى الفضاء» تمضى الجموع الى طريق ألغائبين .. ويشق اسوار الغمام .. ركب العيون .. كمطارق الثأر الدفين .. تهوي على الايدي الخضيبه .. بدماء من حفرت جدودهم القناه ..»

ويعجبني قول الشاعر بعد هذه الرجفات الراعدة عن اشباح ضحايانا الشهداء ... « اشباحهم نصبت مشانق للطغاة » .. هكذا تتمثل لنا ملامح التجربة بعد ان تستقر في سويتها الموضوعية .. ثابتة ثبوت الكلمة ... بعد عدة مراحل من اهتزازات الانفعالات المجردة ، وهي في ذهن حسن فتح الباب كضابط واقعي لا تأخذ وهلة الرومانسية المغلفه ، ولا تعنى بتوليد الافكار .. وانما تنصب كصوت قطره الدم على الرمل اللاهب .. فينقل لك الشاعر ذلك الصوت البعيد ، في اداء سهل مسموع النفس .. مكتفيا ببريق قطرة الدم .. عن بريق الالفاظ ...

ثم يلفتنا الديوان بعد ذلك الى البحث عن موقف الشاعر من التجربة موقفا مواجها ... فتجد انه منذ ان وقف على ارض مصر منتصب الجراح شامخ الدمعة ، عزيز الحزن .. منذ ان تلاقت احاسيسه الانسانية بشعوره النضالي الذي بثه فيه عمله كضابط مكافح ، منذ هذه اللحظة ، حتى قبل قيام ثورة مصر ، وحسن فتح الباب شقى بوظيفته ، فطبيعة الشاعر قذفته من فردية وظيفته ، واخرجته من دائرة الانانية البكماء ، الى دمعة مضيئة تتهدج على نبضها اجفان عيون رفاقه الطيبين البؤساء.. كان هذا الشاعر الضابط يكره الملكية ، واذكر انه في عهد الملكية قد طلب منه في عيد ميلاد الملك السابق ان يلقى قصيدة في تلك المناسبة ،في اقليم من اقاليم مصر .. فلم يفعل الضابط الحساس الواعي ، لشعوره الطبيعي الساحق ان شخصية الملك هي ارث الوثنية الفاسدة ، ولانه كان يسير في طريقه منغوم الخطوة مع خطوات اللاهثين المتعبين من ضحايا الاقطاع والفساد ، ولهذا فان حسن فتح الباب اذا نطق عن معركة بور سعيد ، ففي صوته كل ايجابية التجربة ... وخروجها عن دائرة اللمس

الذهني الاستحضاري .. الى ميدان الحقيقة .. حيث الارض ... والاشلاء تتناثر عليها كانها فلذات منها تتناثر .. كي تلتقي في الدم المتعانق على التراب .. هناك .. حيث مرايا الجراح تعكس شروق الشمس ، وهذه هي فرصة الشاعر لايجابية حياته ، واتصاله مباشرة بالناس .. بقضاياهم .. لقد مشى حسن فتح الباب في زحام الدموع ... في سوق الالم بكل شجاعة المؤمن بغد جديد بهي .. وكان الشاعر في كل مواقفه الادبية ، انسانيا تمسكه الحياة في يدها كمنديل من ورق الزيتون .. تلوح به لمسافر غريب .. او تهزه لعائد غريب !! سواء في مواقفه الشاعرة الصادقة من حياة الصيادين ، او حياة الناس عموما ...

ولقد لاقى هذا الشاعر حربا عوانا من بعض شعراء مصر ، كعادة الطيبين من الناس الذين ورثوا في ذاكرتهم السلالية صورة عن الضابط بانه لا يحمل انحناءة الحب والرقة ، وسلامة الفطرة ، واشهد الله ان حسن فتح الباب انسان مؤهله الاول انسانيته الرحبة المتلاصقة بصدور الناس .. حتى اعدائه ... فليس في طبعه ذلك التجهيم الاسود الذي يحدثه دخان الحقد حين يتجمد على الوجه البشري ، وفي نفسه ... وشعره اسارير الريف المصري ساعة المغيب في فصل الخريف ،تحس الرياح تهز اغصان الصفصاف ، والموج يسرع في خطاه الطيبة ، والصمت يزفر من قلبه بكل هزات الاوراق المتساقطة من الشجر .. صورة هادئة ثائرة .. صادقة ... ثابتة .. متطلعة بعين السكون الى عاصفة خبيئة وراء غمامة بعيدة .. وسجية امينة لا تكلف فيها ، ولا دمعة مصنوعة .. « وعاد الرفاق من المعركة .. واعينهم شعل كالشفق .. تنير الدروب.. لتسكب فوق الافق لهيب القلوب .. لهيب الدماء.. » ثم ... « خوض غمار الصاعدين ... بخصوبة الاحرار في احشاء من تضع الحياة »

الا انني لا يعجبني قوله .. « رياح الردى تقتلى كالحريق ... و ... يبنون للنور شم القلاع » .. وذلك لان الشاعر قداستوفى دراسة التجربة الشعرية في مرحلتيها، عند الكلاسيكية القديمة بطريقتها الابتداعية، ونحو الواقعية الصريحة صريحة النور ، السائرة مع الركب الى غدنا المنشود ، ولهذا تجد بعض رواسب الانشائية العتيقة المنهزمة في هذا الديوان ، وقصائد « تحية الى بور سعيد وصوت الشعوب ، والمؤتمر الافريقي الاسيوي الذي عقد في سنة ٥٥ بباندونج ، والصاعدون ، كل هذه القصائد قد اضاع فيها الشاعر طاقته النفسية في تلميع ارضية الحجرات وطلاء الجدران ، مع انه كان حريا بسكنى النور لو فتح نافذة واحدة بسيطة يدخل منها الربيع .. والحب .. وتفرشها الشمس بوسائد وثيره .. او يتركنا نسكن الارض كلها .. ونردد معه ما قاله في هذه القصيدة الصاعدة التي هزتني : « المجد .. للفارسين بالدماء.. دوحة السلام .. والحياة » وعند مفترق الطرق بين آلام الاب وحنوه ، وثورته الحاقدة .. تتهدج دمعة الشاعر قائلة : « وساءلني في ابتهال الصغير .. وقد ارعد الافق من حوله .. وغام الضياء .. كأن السماوات قد اطبقت .... على روحه الغصة الساجية وريحا من الغيب ليست ترى .. تبدد احلامنا ... وتلفظها للضياع .. » ثم « اجل يا صغير .. هي المعركة .. تروى بلادي منها الدماء .. يريدون ان يغصبوا ارضنا .. يريدون ان يحرقوا دورنا .. يريدون ان يسلبونا الحياة .. » ثم ينتصب على ثغر الشاعر قسم الارض فيقول : « .. وباسمك .. باسم حقوق الصغار .. وباسم الحياة.. وحق الملايين في عيشهم.. يهب الدم الحر في صرخة ... تدوى كعاصفة من جحيم ... على قصفها غضبات الشعوب ... لتخرج دياري ابناءها رعاة السلام .. رعاة الحياة .. لترجم رمالي عداة الصباح .. عداة الحضارة والناقمين .. على فجرنا .. »

ثم يجري الشاعر بانفاسه الجوابه عبر الوادي الاخضر ويخاطب ابنه « بلادك مطرقة يا صغير .. لشعب من الشرق هبت خطاه ، تدق الى الفجر باب المساء .. وتهوى صواعق تصمى الطغاة » ... وما اصدق هذه الصيحة التي قالها الشاعر بعد ان عاش تجربة بور سعيد ، فعاد الينا من نهر الدم .. وخريره الاحمر يصبغ صوته ببحة الدم الملتهب « لينفسح الافق عن نورنا .. لنحفظ للعالمين السلام .. » اما قصيدة البعث ... فكنت ارجو من الشاعر ان يحذف منها بعض مقاطعها المتكررة في شعر الكثيرين .. مثل رفاقي الاحرار .. يا شعب الخلود ... ولكن تشفع للشاعر في هذه القصيدة ما تنطوي عليه من قصة اوزيريس الذي « يبارك الحياة بالنضال والجهاد ... وينشد السلام .. ويصنع التاريخ بالسواعد الشداد ... لتشرق السماء في الوديان ...» بماذا ؟؟. « بالحب .. والسلام يا رفاق » .. حتى يسطع صوت احمس في القصيدة ... لانه « اليوم .. عاد احمس المحرر النبيل .. يطهر الوديان .. والصحرا... والمياه ... ويفتلي بالثأر للعناه .. فلتنصبوا الجباه يا رفاق شامخات». الا انني مع ارتياحي لصعود صوت الشاعر بين الصخور ، وتسلقه بالصدى رؤوس التلال ، فان مأخذي عليه هو تكراره لبعض الالفاظ بشكل يثبت تأثره المستوحد بها، مثل لفظة «تفتلي.. والفداء.. ويرخص.. » كذلك لم تعجبني قصيدة « لا ينتهون ... » ولا اعرف كيف لم ينفعل شاعر كحسن فتح الباب بكفاح الشعب الجزائري .. ولا يصور من هذه المعركة الا قصيدة متهالكة .. ضعيفة .. كقصيدة لا ينتهون .. انها اشبه بالنشيد المصنوع بسرعة لنيل جائزة مالية ، وكاتبها يرسم خطوط الجراح.. بينما تتلكع بين شدقيه « لبانة » بليدة ، ورجائي من الشاعر الصادق حين يصدر ديوانه الجديد « وجوه .. مصرية .. » الا يضع هذه الاناشيد المصنوعة بشكل متكلف ، فانها تقتل وحدة الديوان ، وتفزع خيال قارئه نعود الان .. الى هذه القصيدة المتوسطة في قدرتها .. وهي « أغنية الى قبرص » فلقد جعل الشاعر نداءها الاول « تفجري ... تفجري .. بلحنك المنهمر .. ترددي اغنيتي .. من قلبي المنطلق ... الى روابيقبرص .. وابشري ملهمتي.. بمطلع ضافي المنى .. لشمس حريتنا .. وموعد منتظر .. على سفوح الهرم .. بين السلام الاخضر .» فهذه النغمة التي تمثل اختزالية الشعر ... وان كانت طلقة .. حره .. الا ان صوت التجربة لم يتدفق منها بوضوح بل يخيل للقارىء ان الشاعر اختلق شخصية حبيبته القبرصية كما كانوا يصنعون الشخصيات في الشعر القديم ، بل كان الاصدق .. والاخلص .. ان يعكس الشاعر احساسه بكفاح جزيرة الدم .. في عرض واقعي فيه جاذبية الواقع. ثم تقلب اوراق الديوان .. .فيبدهك عنوان قصيدة اسمها « حبة القمح » ولكنك تبلع مرارة الخيبة .. حينما تسمع هذه النغمة الكالحة ... (حبة القمح منذ بدء الوجود .. يا طلاب الجموع بعد الجموع) ثم خدعة المستغل للمكدود « ومعين من الثرى .. والدموع .. » هذا كلام أجوف ، لا دلالة له ، ولا ايماءة فيه ، واني مندهش كيف سمح الشاعر لنفسه الطليقة المغموسةفي دموع الناس ان يقول « يا سلعة المتسلطينا .. يا غصة للكادحينا يا ضلة للجائعينا » الا ان قصة القمح نفسها تثرى موضوعية القصيدة .. لانها تتسلل بالاجيال في معركة دائرة لا هوادة فيها للافاق صوت الحياة » ولكن تكرار هذه البطانة وترتاح قليلا لهذه النغمة « باسمك سار الركب في دربه .. يحدوه للافاق صوت الحياة . » ولكن تكرار هذه البطانة الموسيقية الاتية (انت الهدى .. للصاعدينا .. انت السنى يجلو

اليقينا ...) مثل هذا يقتل القصيدة في نظري ، اذ لا داعي لاتخاذ ركيزة موسيقية يتكيء عليها الشاعر بعد كل فقرتين. ثم تقرأ قصيدة «خلف الاسوار ».فتسمع في قصيدة كان ينبغي ان تكون صادقة ... بسيطة تسمع غنائية علي محمود طه .. (يا ابنتي .. يا قرة العين .. ويا انس الفؤاد !! ويا حلم السهاد .. ووقاه ضعف ملتاع وشاك) .. هذا كلام مسحوب على وجهه ، بلا تطلع قسمات معينة ، واني اسف للشاعر الفنان حين يقول هذا المطلع البدائي ، لان الجو التقريري المباشر يسجن القصيدة. واظن ان الشاعر حسن فتح الباب قد تطور بعد هذا الديوان ، وسجل شعره خصيصة من خصائص الواقعية المصرية . فحياة الصيادين ... هو وحده الذي عبر عنها بصدق .. وامانه .. ويذكرني هذا التخصص الفني المبني على صداقة الفهم ، بالشاعر « هوتيوكريتوس » الذي عاش في صقلية عام ٢٧٤ ق.م. فلقد تخصص هذا الشاعر القديم في تصوير حياة الرعاة ، وعبر عن آلامهم .. وامالهم، وله قصيدة تاريخية اسمها (عيد الحصاد) تسمع فيها حفيف السنابل الخضراء .. ومزمار الراعي الذي ينبت منه ربيع اخضر يتموج بعبير اللحون ، ووقع خطوات الرعيان فوق المنحدر الاخضر ، فلانه وقف حياته الشعرية على قضية انسانية معينة ، ولانه احس بزمالته مع الرجال الصاعدين الطريق باغانيهم ، كل هذا يحدد اهدافه النفسية ، ويبرز ملمح التجربة في شعره ، وحسن فتح الباب في شعره الجديد ، يصور لنا ناحية من نواحي الصراع الجماعي في بلدنا ، وشعره هو ميعاد الفن مع الواقع. لقد رأى هؤلاء الصيادين واستمع الى شكوى مجدافهم في الهزيع الاخير من الليل ، ورأى شبكة من الشباك تخرج من قلب النهر مخضوبة الحبال بدماء قتلى ، وخرج اليهم فيزورق يتابعهم الدقة الخائفة والامل الكافي، كأن عين الغريق الذي لم ينته من الحياة بعد، فتسمع لاضواء الطريق البعيد، ووشوشات الضوء في المنازل النائية.. تسمع لكل هذا في عينيه غرغرة النور حين يغرق في جوف الليل... ويخمد فوق حاجز السكون.. كبقايا رماد من اغنية .. معذبة .. احترقت في فم من غناها لاول مرة..

وفي ديوان « من وحي بور سعيد » تطلع للكمال ، وسير وئيد للاتساق الا ان الشعر العمودي القديم على جزالته ، وغلاء ثمنه الورقي ، يشوه رسالة الشاعر الواقعي المتنقل بعدسته الملونة بطبيعتها من خندق به جندي جريح ، الى بيت تسعل فيه الحياة في طفل مريض ، الى مجتمع مزحوم بالايدي الملوحة للشمس فوق دخان المصانع ، وضجيج الالات ، ان الشاعر لن يجد الوقت النفسي الكافي ليعيش في القصيدة ويقعى برأسه داخل العمودية المرهقة ، لان العمل الفني لا ينبغي في حياتنا المتطورة ان يخضع لذاتية البيان ، وانانية اللفظة لان هذا يعطل انطلاق الوعي التجريبي، وينسى الشاعر مهمته الاولى الجدية بل يدخله في قمقم الكلمات والقوافي لتبدو لك معجزة الساحر في الحبس وحده .. لا في الانطلاق !!.. والان .. ما هو الاثر الفني الذي احدثه ديوان من وحي بور سعيد في نفوسنا ؟.. ولنقسم الان المجتمع قسمين متوازيين ... القسم الاول هم الناس العاديون الذين يتلقون الحياة.. ويعكسونها في صدق والقسم الثاني هم الشعراء .. فالناس الذين قرأوا الديوان بدون دخل من غيرة ، او لمسه من تنافس ، احسوا بما يستحق ان يحس به ، ولم يكلفوا انفسهم البسيطة عناء الحقد ، وتحديق العين الناقدة .. واعرف منهم رجلا مربيا بكى حينما قرأ قصيدة الجبانة .. اما الشعراء فمنهم الذي اعرفه جيدا لا يملك رصيد الفن في ذاته ، وليس فنانا اصلا ، وليس في تكوينه النفسي استقلال الطائر ، وشراعه الممدود وراء كلمة الريح ولكنه يدخل نفسه بالقوة في حياة الطيور ، وربما كان دجاجة شعرية لها جناحان ... وربما كان اوزة طيبة لها طول الجناح .. وريش الجناح ، وبيولوجية الجناح ، ولكنها لا تطير .. ولو سماها الناس باسم الطيور ! لا تطير اطلاقا الا لو وقعت من سطح منزل ... الى سطح منزل اخر » فتطير هابطة .. تطير بقوة جاذبية الارض للاوز والدجاج الطيب الهادىء ... ولله في خلق الشعراء والطيور شئون!

ومن الشعراء في مصر من اعرفه وجها متجعدا كوجه الضفينة الصامتة، ويقول لك الشعر ، وقد يكون في شعره بعض الانعكاس المضيء من اضواء الغير ... افلا ينعكس نور الشمس على الانهار الجارية .. وعلى مستنقع الطين ايضا ؟! وتحاول بطيبتك ان تنصفه ، فلا تجد فيه .. فيه كله ، من اول خلجة صوته الاصفر .. حتى ملامح وجهه اللئيم لؤم الدمل ،حتى نظرات عينيه التي تشبه آلام الافعى .. حين تتقطع في فحيح انساني بالنسبة لها .. وهو حقها ان تتألم كبقية الحيوانات هؤلاء الشعراء انهالوا في مصر .. وليس في طبيعتهم رحابة الفنان ، ولا صدقه ، وكم من شاعر رفع ذراعيه للريح ، واعتلى صخرة محدودبه..وقال في مسوح الزعامة : اني احبهم .. احب الناس .. الجموع .. العبيد .. قضايا الجراح والعرق .. وارهق اعصابه واستغفه طاقته في الكذب ، وصناعة التجربة بمهارة ، معتمدا على انه هو نفسه محط الشفقة ، ولو تكشفت لله خلقية هذا الانساني .. نفسيته الفنية لزكمت نفسك رائحة الجيف من الام الجثث الميته في قبو ذاته .. واعرف شاعرا من هؤلاء قال لي مرة انه حين يدخل دورة المياه ، ويشم رائحة كريهة حادة يستشعر النشوة البالغة ، ويطرب لبلاغة تعبير المرحاض عن نفسه .. وله الحق ان يقول ذلك ، فالعفن يستطيب العفن !!

وفي مصر ايضا شعراء حقيقيون ، فيهم الرصيد الكامل ، وثقافة التجربة التي تنميها نفس غير حاقدة بميراث اجدادها ، فيهم بساطة الحب وبساطة الكراهية ، بدون مغالاة في الاحاسيس المتلوية كالافاعي السجينة في بئر الصقيع ، هؤلاء الشعراء هم تجارب الحياة الانسانية كلها ، وهم منصفون بمنطق النور والحب والثقافة الانسانية في ذواتهم الصريحة ، وهؤلاء حينما يقرأون لشاعر يتجنبون عنف الحقد ، ولؤم الانانية ، وضمور الذاتية التي يعكسونها حبا للناس ، وهم مردة البغض حقا ، وهؤلاء تعرفهم من سيماهم ، لان الشاعر ينبغي ان يعرف بوجه الحب والصفاء ورقي الذهن ، ونضوج الشخصية ، واستشراف الوعي الواقعي المصغى الى الابعاد ... ولكن يبدو ان سوق الشعر الواقعي قد فتحت كل مهلهل الذات ، اشعث شعر الذهن ، مجدول العصب على البغض واللؤم وفهاهة الحس والوجدان .. وهذا النوع من البشر لو احب ، فهو قلب متلون لا عهد له ، ولا ميثاق لمشاعره في العلاقات الانسانية عامة .. ولا في ميزان النقد خاصة ، لان قاعدة شخصيته مهزوزة.. متأرجحة ... وفي هذا فنه ... وتفوقه ..

« على مرايا المركبات .. وجوهكم اقنعة للشرفاء .. ايديكم التي يمد الشرفاء ... لثم جياع .. وسحاب المعدمين ، قد خضبتها .. بيادر الحنطة في قاع التلال ، عالمنا يلفظكم يا شرفاء ... نحن على درب الكفاح ... نطرق ابواب الحياة، نسحق خوان الجموع ، بسطوة القيود ... »

هذه ابيات من قصيدة حسن فتح الباب ، في احدى ثوراته النفسية التي لمستها بنفسي ، وحينما تقرأ بعد هذا قصيدته عن بور سعيد (لتصعدى) سترتاح نفسك لما يقول « .. في بحيرة الدماء فجرك انبثق ... على الضفاف .. والدروب .. والوجوه .. » .. ثم « .. وغيضت من دمعها امراة .. وحيدها مل السوءال منذ حين : متى يعود من سفر .. ابي متى يعود ؟ » هذه نبرة انسانية صادقة ... ثم يعلو صوت الشاعر مخاطبا بور سعيد « ليرتفع منارك الجواب في البحار .. لترتفع على

المياه كل ساريه ، لتصعدي يا كعبة التاريخ للقمم ، يا مشعل الشعوب في كفاحها المجيد ، ... لتصعدي يا حرة الجبين ، يارايه القناة ... رفافه من بسمة الشهيد ، مجدولة من اعظم الجدود .. لتصعدي .. لتصعدي يا بور سعيد .. » اما قصيدة« انهم سيرجعون » فنغمتها الاولى « هناك .. فوق قمة الضياء ... في حدائق الافق .. تاملوا الابطال .. هذه دمائهم على الشفق .. تقبل الوديان .. والحياة بالفداء تنبثق » ... هذا لا يعجبني في نهايته ، وانا لا ارائي الشاعر ، فحكاية « الحياة بالفداء تنبثق .. » جملة مصنوعة مفتعلة لا حرارة فيها ، كما ان الصوت الانشائي التقريري في القصيدة يخنق رجفة الحس الكاتب ، فلا تسير مع الشاعر الا تحت « شمسية من الحرير الملون » لا ترمي عليك الا نصف ظل لانها هي نفسها لا صدق فيها ولا اخلاص .. كما ان حكاية « .. هيا الى الوادي الامين .. » ونجتلي انوار من اردوا هنا جحافل الظلام .. » لا تعجبني ولا تهز في شيئا غير راسي بالاسف ، الا انني اصبر على هذا الجو الكثيف الذي تطن فيه المراوح الصناعية للتهوية .. حتى استشرق هذا الكلام المريح .. « لا تخفق الشفاه بالوداع .. انهم سيرجعون .... سيرجعون في الربيع ... والحصاد في الربى .. » وهكذا تتأرجح قدرة الشاعر بين الكلاسيكة المجهضة العتيقة ، وبين التحرر الطليق الكامل .. بين النغمة التقريرية المباشرة ، والصوت الطبيعي المرسل لمخاطبة الانسان ... والاشياء .. والجموع في بساطة الحب .. وصدق الثورة ... ويقيني ان ديوان الشاعر حسن فتح الباب الجديد الذي يتهيأ لاصداره بعنوان « وجوه مصرية..» سيكون ناجحا .. وسوف يتجنب الشاعر هذه المحاريث اللغوية البالية ، ويخرج للشمس تتوج جراح الانسان بتاج لا زركشة فيه ، وانصحه الا يتعجل الكتابة ، لان العمل الشعري يحتاج الى ثلاث مراحل ... الاولى .. هي اللقطة الصادقة من الزاوية السليمة بعدسة ملونة طبيعيا .. والثانية هي عملية التحميض الذهني في العقل الباطن للشاعر، والثالثة هي الاداء النفسي الواقعي اللامس لب الحقيقة تحت ضوء الفن ، واخراج التجربة في صورة فنية اخاذة ، بعيدة الفور ، متآلفة الابعاد ، نشيطة النبضة ، تجمع بين صدق اللمسة الاولى ... وذكاء التصوير الانساني ، وروعة الصدق .. والبساطة ...

واني اهنيء الشاعر حسن فتح الباب على ديوانه « من وحي بور سعيد » وهو الديوان الوحيد الذي سجل معركتنا ضد قوى الاستعمار، وهو ان كان لم يتراحب للافاق الانسانية الطليقة ، وهو وان كان لم يتحرر من الاوراق المنشأة للشعر القديم المصنوع ، فلا شك ان الشاعر كتبه في مرحلة تطور في مفترق الطرق بين القديم والحديث ، وعند حسن فتح الباب طاقة نفسية تؤهله لان يتفوق على ديوانه هذا في عمل جديد ...

في نهاية هذا البحث انصح له بعدم الانسياق تماما لانحرافات المدرسة الواقعية ، في فهم بعض الشعراء ، حفاظا منه على طبيعته الشعرية المستقلة ، بحيث تأتي لمسة التجربة وتكوين الصوره ، كما تنبع قطرة الماء من اعماق الصحراء ، لا كما يتمثلها هو في شعر الاخرين ... لو اعجبه شعرهم ..

يستطيع الشاعر الواقعي ان يصور الحياة .. والمجتمع .. بطريقته هو ، لان الواقعية ليست وليدة شاعر معين ، او منهاج خاص ، او مدرسة خاصة تصدر مراسيم الشعر !!.

الشعر كالحياة يا رفاق .. تنفسوا كما شئتم ، لا تزفروا الشعر او تشهقوا به تبعا لتعليمات معلم الرياضة البدنية حين يقول صباحا : شهيق ... زفير .. كلا .. فالحياة اعمق والحب اكبر ، ورسالة الفن طليقة من كل قيد .. فقط .. اصدقوا .. وانفعلوا .. ولا تلهكم الشهرة الرخيصة عن ورع الحب الهادىء الساذج للفن .. والناس .. والطبيعة .. وعن التأمل الرحيم المتواضع ....

والى اصدقاء الحياه .. الى غارس نور الشمس في الارض تحية الشعر ، والى الشاعر صاحب ديوان « من وحي بور سعيد » قبلة الشمس على جراحه الكبيرة

القاهرة

محمد الجيار

ملحمة (وانج كوى ولى سيانج)

★

في هذا الوقت الذي تتقارب فيه الشعوب وتعقد الصداقات وتتبادل الثقافة والمعرفة ينقل الشاعر الاستاذ عبد العزيز خاطر ملحمة (وانج كوى ولى سيانج) وهي ملحمة من الادب الصيني الحديث لشاعر صيني معاصر اسمه (لى‌تشي) وعبد العزيز خاطر بهذه الترجمة التي نقلها عن الانجليزية يشارك في هذا التعاون الثقافي الذي نرجو ان يعم كل بلاد الارض .

ولئن كان نقل الشعر من لغة الى لغة اخرى نثرا امرا صعبا فان الاصعب بلا شك نقله شعرا . وكل من عانى كتابة الشعر يعرف كيف تعب المترجم وسخر موهبته وثقافته في نقل عمل ادبي يتطلب منه المحافظة على المعنى الذي اراده الشاعر الصيني واخضاعه لفنية الكتابة الشعرية العربية . وقد احسن المترجم اختياره للاطار الشعري الجديد الذي ترجم به الملحمة ، فقد اعطاه حرية نظم اتاحت له ان ينقل هذه الملحمة الجميلة دون اعتساف او اكراه وان كانت هناك بعض المآخذ التي تمس جودة الصياغة ولعلها راجعة الى ان عبد العزيز خاطر ينقل عمل غيره شعرا .

ففي عام ١٩٣٠ كان الجدب والقحط ، فهام الناس جائعين بينما (سوى) يقتني من الحرائر اكثر من تسعين والقمح في اهرائه نهبة الفساد فهو رجل غليظ القلب لم يرحم (وانج) العجوز ويأتي محصل الايجار عنده يطلب النقود فكان ان جرى لسانه بكل ما يمكن ان يقال :

« هناك دائما حياتي.. غير اني الان عاجز عن السداد ففي حياتي القادمة اكون ثور (سوى) او جاموسه ، فكان ان اجابه المحصل :

عليك ان تسدد الايجار

وهل تظننا ـ يخيفنا تهديدك ان نموت ؟.. »

ويموت وانج‌العجوز ضربا بالسياط ويعمل ابنه بطل الملحمه (وانج كوى) عند (سوى) الا انه يلقى العذاب والجوع والاضطهاد :

« وبينما تكتظ بالحلوى القدور

في مطلع العام الجديد

فكوى لا يلوك الا مضغة النخاله
وفي الخريف يجمع المحصول في الاجران
لكنه ـ وكفه صغيرة هزيله ـ
ينهال فوق راسه ـ لبطئه ـ السباب
وعندما يرعى قطيع الماعز في الشتاء
فانه يعاني البرد من رهافة الرداء
ومن يديه الرخصتين تنزف الدماء
وكالثلوج يصبح الطعام قاسيا مر المذاق
وكم تمنى في المخيم لو يستطيع وقد نار
لكنما الاخشاب في الثلوج
قد بللت جميعها بالماء ... »

ويحب(كوى)الفتاة الجميلة ـ (لى سيانج) ابنة (لي تي جوي) الوحيدة وهي في السادسة عشرة الا ان (سوى) صاحب الارض الغنى يراهـا فيشتهيها ويعرض عليها الزواج الا ان الفتاة تزدريه ويدور حوار يكشف عن خبيئه(سوى) وصلابة هذه الفتاة الفقيرة الكبيرة النفس ويعلم الشاب وانج بهذه الواقعة فيزداد حقده على (سوى) وينضم الى الجيش الاحمر الذي يقرر الهجوم على (وادي العنزالميت) الذي يقيم به (سوى) الذي يعلم ان الشاب (وانج) على صلة بالجيش الاحمر فيأمر ان يعلق من وسطه، ويضرب بافرع الصفصاف الغليظة . ويعرض (سوى) على (وانج) ان يخبره بما يريد وان يقطع صلته بالجيش الاحمر الا ان الاخير يتمسك بعقيدته :

« يا ايها السلحفاة العجوز
صعب عليك ان تفش هكذا ـ هذا الزبون
من بين كافة العباد ـ انت اخبث العباد
قتلت والدي .. صيرتني عبدا لديك
واكدح النهار والمساء طول العام
لكن طوال الخمسة الاعوام لم اظفر بأجر
في هداة المساء تطعم الدواب بالعلف
لكن تناديني انا : يا كلب
محقرا شاني فتدمى نفسي
في الزمهرير ليس لي ثوب وليس لي فراش
طوال هذه السنين ليس الا فروتين ملبسي ـ قديمتين
على مدار العام انت في نعيم
والسوط يرعاني انا بالضرب من يوم ليوم
ولقد رعاك اب وام
اتظنني انا لست مثلك ، لم يكن لي في الحياة اب وام .. »

وتهرع (لى سيانج) الى بعض رؤساء الجيش الاحمر تخبرهم بما حدث لينقذوا حبيبها فيهبوا الى نجدة زميلهم وتدور معركة قصيرة وينقذ (وانج) ويفر الاقطاعي (سوى) ويتغير اسم (وادي العنز الميت) الى (وادي العنز الحي) ويتزوج العاشقان (كوى) و (لى سيانج) الا ان (سوى) يعود ثانية بعد ان ساعدته فرقة من الجيش الابيض على استرجاع اراضيه ومجده ويحاول مرة اخرى ان ينال (لي سيانج) الا ان هذه تبصق في وجهه وتفر هاربة وتمر الايام والزوجة الشابة ترسل البصر الى الافق البعيد حيث زوجها :

« هناك خلف بيتهم تحدرت اراضي
وخلف هذا الحصن راحت تلتوى التلال
وبعضها سوامق وبعضها خفيض
انى لها المضي كي تلاقي الحبيب
وفي جوار بيتها شجيره
غليظة الجذور غيرانها قصيرة
تهزها (سيانج) قد تقبضت من حولها يداها
تقول نبئيني .. اين قد يكون زوجي
وعندما ترى سربا من الاوز البري
يطير للجنوب
فلا حدود عندها في النفس للشقاء
« قالوا لنا ان الاوز يحمل الرسائل
فاحملن عني للحبيب هذه الرسالة
قد كانت الاشجار اذ غادرتها وشيكة النبات
والان قد تساقطت اوراقها الصفراء
وانت حتى الان عن ديارنا بعيد ... »

ويحاول (سوى) ان يتزوج (لي سيانج) بالقوة وبينما هو في سعادته الواهمة ليلة الزفاف تسمع طلقات الرصاص ويهرب المدعوون من رجال الجيش الابيض فيقبض عليهم وعلى (سوى) .. وتسمع (سيانج) بالمعركة فتخرج لتجد زوجها (وانج) وسط رفاقه ..

وهكذا يعود الزوج الى زوجته

ومن خلال هذا الصراع الدرامي بين قيم هابطه وقيم صاعده وبين انماط بشرية تمثل الاستغلال والسيطرة واخرى تجاهد في سبيل كرامة الانسان وحقه تقف هذه الملحمة الصغيرة عملا جليلا يوقفنا على صورة من صور الادب الصيني الحديث ذلك الادب الذي لا نعرف عنه الا الشيء القليل .

القاهرة — **كمال نشأت**

رياح الدروب

للشاعر راضي مهدي السعيد

مطبعة دار المعرفة ـ بغداد ـ ١٣٦ ص

★

« ومع ان الشاعر راضي مهدي السعيد قد لا يسر ان يقال عنه انه شاعر رومانتيكي ، فانه لكذلك . ولكن رومانتيكيته رومانتيكية معتدلة افادت من الفترة الكلاسيكية الطويلة التي مر الشاعر بها ، شيئا كثيرا .. ومن يعرف الشاعر راضي السعيد عن كثب ، يبرر له هذا الارتجاع الرومانتيكي .. وهو ارتجاع لا خير منه ، ونجد اليوم مثيلا له بين الشعراء الشباب في امريكا وبريطانيا . »

هكذا يقدم الشاعر العراقي بدر شاكر السياب صديقه الشاعر السعيد.

ولقد صدق السياب في كثير مما قاله عن الاخ راضي «الشاعر الرومانتيكي المعتدل » ... ومن اجل ان ابين صحة كلمات السياب سأقدم المقاطع التالية للقاريء :

« يا انت يا سناء ! ـ يا حلما يندى على مبسمه الضياء ـ يا خفقة تهتز في روحي بلا انتهاء ـ اني اناجيك هنا من مهمهي البعيد ـ كما تناجي الليل روح التائه الشريد ـ في عالم الصمت ودنيا القلق المبيد ـ يا انت

يا سناء ! ـ يا غابة يشرب من عبيرها المساء ـ وتسبح النجوم في عيونها الظماء ـ اني اناجيك هنا من عالمي الغريب ـ عالم دنياي التي لونها المغيب ـ بلونه الكئيب ـ يا انت يا سناء !

ارأيت كيف تثير « سناء » حبه هذا فيه كل اللوعة الرومانسية ، وكل خواطره التي يبثها من « مهمه » ومن « عالم دنياي التي كونها المغيب ـ بلونه الكئيب .. ارأيت هذه الكآبة التي تلون عالم راضي ... انها كآبة « نازكية » احتواها ديوان « شظايا ورماد » وحفل بها ديوان « قرارة الموجة » ...

ثم استمع : « وطويت ايامي ـ ودفنت الامي ـ ووأدت احلامي ـ يا قلبي الدامي ! ـ يا قلبي الدامي ـ وانت انت يا ضلوع ! ـ يا منزف الدموع ـ ومحرق الشموع ـ ومصهر الاشواق والحنين ـ ومنطوى اللوعة والانين ـ يا انت يا ضلوع ! ـ يا لهبا يجوع ـ في جسد معذب تأكله الصدوع ـ وتشرب الجراح ـ منه بقايا مزق عصرها الكفاح ـ وجمدتها وهي في حفرتها برودة الرياح .. « ص ٧٩ صيحة الجرح »

وتأمل يا اخي القاريء هذا « القلب الدامي » وهذه « الضلوع » التي تنزف الدموع وتحرق الشموع وتصهر الاشواق والحنين .. وانظر هذا الجرح الذي لا ينطفيء دمه الثائر .. واستمع قصة هذا الجرح تختتم هكذا : « غدا .. غدا ادفن الامي ـ هنا . واطوي سود ايامي ـ غدا . غدا انحر اوهامي ـ تلك التي اودت باحلامي ـ وانشر الشراع ـ واعبر الشاطيء حين يخفظ الشعاع ـ وتطلع النجوم ـ وتختفي الغيوم ـ وراء سد الليل ـ ليل الحزن والهموم ـ فلا ارى غير ظلال عالم مضيء ـ عالم ارض قلبها بريء ـ تحلم بالزهر وبالضياء ـ وبالليالي الخضر والهناء »

أرأيت هنا كيف انتفض هذا الرومانسي على اوهامه ... وكيف ثار في موكب الثائرين على « الانا » كي يدفن هذه الاحلام والاوهام ... وكيف « سينشر الشراع » في سعيه نحو الارض المشرقة الحنون ... اذن فرومانسينا هنا قد زحف نحو الواقعية الانسانية .. واي زحف زحفه ؟ لقد زحف بخطى كلاسيكية رشيقة ليس فيها حذر المتزمتين ولا طفيان « الفوتوغرافيين » ...

هنيئا لراضي على هذه الانطلاقة الظافرة !

ومع ان الاوهام قد دفنها راضي في تجربته هذه التي استعرضنا ... الا انه يعود لها كما يعود الطفل لدميته ، وكما يعود الرومانسي لاحلامه « الجميلة » .. الاحلام التي تعيش عليها واعيات الشعراء الرومانسيين « لو تعلمين ! ـ يا طيف احلامي الجميلة في غد العمر الرهين ـ يا لحن ايامي المعذبة الاماني والحنين ـ يا افق دنياي الحزينة يا ابنة الشوق الدفين ـ لو تعلمين ! ـ ماذا احس بـه انـا النائـي الحـزين ... » « عمري يضيع سدى وايامي تبددها ـ يد الزمن الضنين ـ وانا هنا في غربة الاحلام لست ارى سوى شبحي المهين » ص ٦٦ « احـلام فـي الغربة » ..

ومن هنا يتوجب علينا قدر كبير من الحذر تجاه انطلاقات الشاعر .. فمع ان الشاعر يعيش في رحاب الجماعية منذ زمن ، الا ان الذاتية فيه لم تفتأ تسخر كل ما تستطيع من اسلحة سيكولوجية .. شعوريـة ولاشعورية كي تنأى به عن الاخر .. عن الانسان ..

وبالرغم من هذه الاحلام و « النواحات » الرومانسية « النازكية » ، تثور في الشاعر وثباته البروميثيوسية ليقدم لنا « رفاق الفجر ـ وبنت المبغى ـ ونداء الارض ـ و عهود الظلام ـ وابنة النور ـ والشرق المهان ـ والمغرب الدامي « وهذه القصيدة نشرتها « الاداب » في حزيران ١٩٥٦ .

ولا حاجة ان اقول ان كلاسيات الشاعر مثل « شعره الحر » كانت رائعة الوقوف على قدميها فيميدان التكنيك والصورة الطويلةوالعريضة ـ بالرغم من افراط الشاعر في الصور الطويلة ـ والتنويع النغمي ، والموسيقى الداخلة والخارجة والتداعي والاسترخاء والايحاء والاجواء المتبناة جيدا وباناة واقعية طيبة .

وبالمثل ، فان الهاجسية والذكريات تعيش قلقه ، فالاستفهامات والتساؤلات ليست الا قنطرة للعبور الى ما هو ركين ومكين في مخيلة الشاعر .. ومع ان الشاعر يظل ينادي « يا انت يا سناء .. يا انت يا ظلوع ... يا انت يا نجوم الخ ... الا ان المنادي لا يمل ، ونحن السامعين لن نمل، كذلك ، نداء شاعرنا المتألم الملتاع .

شيء اود ان اقوله .. هو ان شاعرنا قد افاد كثيرا من السياب والبياتي ونازك . ومع انه تخلص في عميق خيالاته وصوره وهياكله وموسيقاه ، من معظم الخيوط والخطوط السيابية البياتية ، الا انه لا زال يحترم كثيرا « النموذج »البياتي ، ولا زال ، بالمثل ، بل ، بالضرورة ، يهيم كثيرا بالتصميم السيابي المبدع .

بغداد — جليل كمال الدين

هذا الشهر يصدر

نزار قباني

شاعراً وانساناً

دراسة مستفيضة عن

الشاعر العربي المبدع

بقلم

محيي الدين صبيحي

دار الاداب ـ بيروت